المحاضرة الثانية
مفهوم النظم قبل عبد القاهر الجرجاني

النظم لغة:التأليف، نظمه ينظمه نظما وانتظاما، ونظمه فانتظم وتنظم،ونظمت اللؤلؤ أي جمعته في السلك،والتنظيم مثله،ومنه نظمت الشعر ونظمته... والنظم نظمك الخرز بعضه إلى بعض في نظام واحد...والنظم: الثريا على التشبيه بالنظم من اللؤلؤ.[1]

وفي المعجم الوسيط نظم الأشياء نظما:ألفها وضم بعضها إلى بعض،واللؤلؤ ونحوه جعله في سلك،ونظم شعرا: ألف كلاما موزونا مقفى،ويقال:نظم أمره أقامه ورتبه[2]

وجاء في أساس البلاغة نظم:نظمت الدر ونظمته،ودر منظوم ومنظم،وقد انتظم وتنظم وتناظم، ومن المجاز:نظم الكلام، وهذا نظم حسن،وانتظم كلامه وأمره، وليس لأمره نظام، إذا لم تستقم طريقته[3]

وإذا كان النظم يعني الجمع والتأليف والترتيب، فإن جل الذين تكلموا عنه أو أومأوا إليه قبل عبد القاهر الجرجاني من لغويين وبلاغيين ومؤلفي كتب إعجاز إن كانوا قد أدركوا شأنه،فإنهم لم يصيبوا حقيقته،عدا مانجده من تطبيقات متناثرة بين ثنايا الكتب، وأهم ملاحظة هو كلامهم عن النظم مربوطا بالإعجاز القرآني.

والدارس للنظم سواء أكان مصطلحا أم نظرية علمية فإنه يشعر بأمرين:

أحدهما أن النظم ضارب بجذوره في أعماق الفكر الإنساني،فكل الأمم قد عرفوه وأشادوا به، وجعلوه معيار الجمال في كل ماحذقوه من أعمال فنية أو دراسات أدبية.

فاليونانيون قد أشاروا إليه،إذ يتحدث عنه صاحب كتاب "فن الشعر"[4] في معرض ذكره أقسام الكلمة والفروق بينها وبين المقاطع والحروف والأصوات التي رآها ضرورية للبلاغة،كما أشار في كتابه"الخطابة"[5] إلى ضرورة مراعاة الروابط بين الجمل والأسلوب وحذف أدوات الفصل والتكرار، محاولا اتخاذ معايير يميز بموجبها بين الأساليب.

أما الهنود فقد اهتموا بالنظم، وما يدل على ذلك ماذكره الجاحظ عن الصحيفة الهندية وما جاء فيها من أصول تتصل بالأسلوب والخطيب،وما ذكره البيروني من محاولات بلاغية في تراث الهند وتاريخهم خاصة ما اتصل بقضية الإعجاز في كتابهم الديني[6]

أما في التراث العربي فإن أقدم نص يتناول النظم مقارنا فيه بين صناعة القول وصناعة الذهب والفضة فيعود لابن المقفع في الأدب الصغير مفاده"فإذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل أصيل وأن يقولوا قولا بديعا،فاليعلم الواصفون المخبرون أن أحدهم-وإن أحسن وأبلغ- ليس زائدا على أن يكون كصاحب نصوص وجد ياقوتا وزبرجدا ومرجانا،فنظمه قلائد وسموطا وأكاليل، ووضع كل نص موضعه،وجمع إلى كل لون شبهه وما يزيده بذلك حسنا، فسمي بذلك صائغا رقيقا،وكصناعة الذهب والفضة:صنعوا منها مايعجب الناس من الحلي

1ابن منظور،لسان العرب،مادة "نظم"مج6،ص 4469

2المعجم الوسيط ،مجمع اللغة العربية، مادة "نظم" ص933

3الزمخشري،أساس البلاغة،تحقيق محمد باسل وعيون السود ،دار الكتب العلمية، بيروت ج2ص284

4أرسطو، فن الشعر،ترجمة عبد الرحمان بدوي،القاهرة،مصر ،1959 ص55

5أرسطو فن الخطابة،ترجمة عبد الرحمان بدوي،القاهرة،مصر ،1953، ص 185

6أحمد خليل،المدخل إلى دراسة البلاغة العربية،بيروت 1968 ص52

والآنية،وكالنحل وجدت ثمرات أخرجها الله طيبة،وسلكت سبلا جعلها الله ذللا،فصار ذلك شفاء وطعاما وشرابا منسوبا إليها،مذكورا به أمرها وصنعتها، فمن جرى على لسانه كلام يستحسنه أو يستحسن منه،فلا يعجبن إعجاب المخترع المبتدع،فإنه إنما اجتباه كما وصفنا"[7]
غيرأن أغلب الذين تناولوا هذا القول من البلاغيين لم يشيروا إلى ابن المقفع[8]
كما تقاسم هذا المصطلح العديد من النحاة والبلاغيين والأدباء ومؤلفي كتب الإعجاز القرآني[9]،غير أن الملاحظ على أغلب ما ألفوه،أن آراءهم لم ترق إلى الحد الذي يجعل من اعتماد النظم مبدءا قارا في التحليل،ولم ير النور إلا في القرن الرابع الهجري عندما ازدهرت دراسات إعجاز القرآن الكريم في بيئة المتكلمين من أشاعرة ومعتزلة بالخصوص، كما أن تلك المؤلفات قد تكفل الزمن بطيها فلم تصلنا، ومن الكتب الضائعة الموسومة بـ"نظم القرآن"نجد كتب الحسن بن علي بن نصر الطوسي(ت،308)[10]،
وابن زيد البلخي(ت،322)[11]، وأحمد بن علي بن الإخشيدي (ت،326)[12]
أما الكتاب الوحيد الذي يجمع في عنوانه بين النظم والإعجاز فهو" إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه" لمحمد بن يزيد الواسطي[13].
إذا كان النظم **كنظرية** أهم سمة في التفكير البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني،فإنه كمفهوم ضارب بجذوره في أعماق تفكير البلاغيين والأدباء ومنظري الإعجاز قبله،غير أن الفضليرجع إليهم في التنويه إليه،وهو يعود إليه الفضل في بناء سرحه وتشييد بنائه،خصوصا وأنه يقر صراحة بذلك حين يقول:"وقد علمت إطباق العلماء على تعظيم شأن النظم وتفخيم قدره والتنويه بذكرهوإجماعهم أن لا فضل مع عدمه ولا قدر لكلام إذا هو لم يستقم له ولو بلغ فيغرابة معناه ما بلغ"

1- أصول النظم عند علماء الإعجاز

تبرز البذرة الأولى للنظم كوجه إعجازي عند **ابن قتيبة** ،حيث يرى أن إعجاز القرآن في نظمه ويدافع عن فكرته قائلا"قطع منه بمعجز التأليف أطماع الكافرين وأبانه بعجيب النظم عن حيل المتكلمين"[14]، وهو بهذا يرجع النظم إلى ما فيه من المعاني البلاغية المعتمدة على جودة التصوير ودقة التعبير وهو أمر لا يعرفه "إلا من كثر فضله واتسع علمه وفهم مذاهب العرب وافتتانها في الأساليب،وما خص به لغتها دون جميع اللغات،فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة والبيان واتساع المجاز ما أوتيته العرب"[15]
وكمثال على ذلك التقديم والتأخير حيث يقول"ومن المقلوب أن يقدم ما يوضحه التأخير ويؤخر ما يوضحه التقديم كقوله تعالى.. فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ16.أي مخلف رسله وعده،لأن الإخلاف يقع بالوعد كما يقع بالرسل فتقول:أخلف الوعد وأخلفت الرسل"[17]

7ابن المقفع:عبد الله،الأدب الصغير،ضمن كتاب آثار ابن المقفع،دار الكتب العلمية ،بيروت،ط1، 1989. ص283.284
8أحمد مطلوب،عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده،بيروت،لبنان،1973 ص52
9تعد دراسة حاتم الضامن أهم دراسة في هذا المجال،حيث رتب الذين تحدثوا عنه بصورة تاريخية.ينظر:حاتم الضامن،نظرية النظم،منشورات وزارة الثقافة،العراق 1979
10الداوودي:شمس الدين محمد بن علي، طبقات المفسرين،تح مجموعة من العلماء ،دار الكتب العلمية، بيروت ص142
11التوحيدي:أبو حيان علي بن محمد،البصائر والذخائر،تحقيق وداد القاضي،دار صادر ،بيروت،ط1، (1408،1988) ج8ص66
12ابن النديم:أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب المعروف بالوراق، الفهرست،تح:رضا تجدد،د م ن ،ص41.
13نفسه ص41
14ابن قتيبة:أبو محمدعبد الله بن مسلم، تأويل مشكل القرآن تحقيق السيد أحمد صقر،مكتبة دار التراث القاهرة،مصرط2،1973،ص3
15نفسه ص10
16 إبراهيم 47
17ابن قتيبة ،تأويل مشكل القرآن ص142

ويوافق **الطبري**ابن قتيبة، فيرى أن إعجاز القرآن في نظمه وفي هذا يقول"ومن أشرف تلك المعاني التي فضل بها كتابنا سائر الكتب قبله نظمه العجيب ووصفه الغريب وتأليفه البديع الذي عجزت عن نظم مثل أصغر سورة الخطباء وكلت عن وصف شكله البلغاء وتحيرت في تأليفه الشعراء"[18]

أما **أبو سعيد السيرافي** فتبدو نظرية النظم عنده أكثر وضوحا خاصة عندما ربطها بمعاني النحو في مناظرته الشهيرة معمتى بن يونس حول النحو والمنطق حيث يقول "معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخي الصواب في ذلك، وتجنب الخطأ في ذلك وإن زاغ شيء عن النعت فإنه لا يخلو أن يكون سائغا بالاستعمال النادر والتأويل البعيد أو مردودا لخروجه عن عادة القوم الجارية على فطرتهم "[19]

ويبدو من محاورته أن المراد بعلم النحو ليس حركات الإعراب فقط وإنما هو في وضع الكلمات وترتيبها[20]

كما تكلم **الرماني** في معرض حديثه عن إعجاز القرآن عن البيان والنظم والتأليف فيقول:"وحسن البيان في الكلام على مراتب:فأعلاها مرتبة ما جمع أسباب الحسن في العبارة من تعديل النظم حتى يحسن في السمع ويسهل على اللسان وتتقبله النفس تقبل البرد، وحتى يأتي على مقدار الحاجة فيما حقه من المرتبة"[21]

ولعل أهم ما أضافه الرماني لنظرية النظم هو كلامه عن محدودية دلالة الأسماء والصفات، وإقراره بأن ترتيب الكلم ليس له نهاية. وفي هذا يقول:"لأن دلالة التأليف ليس لها نهاية ،كما أن الممكن من العدد ليس له نهاية يوقف عندها لا يمكن أن يزاد عليه"[22]

أما **الخطابي** فيقر صراحة أن القرآن معجز بنظمه ،ومرد ذلك أنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني حيث"لا ترى نظما أحسن تأليفا وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه"[23]

وهو بهذا يؤسس للبلاغة حيث يقول:"عمود هذه البلاغة التي تجمع لها الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام وإما الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة"[24]

ويرى أن النظم ليس بالأمر الهين بل هو كما يقول"وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر لأنها لجام الألفاظ وزمام المعاني وبه تنتظم أجزاء الكلام ويلتئم بعضه ببعض، فتقوم له صورة في النفس يشكل بها البيان"[25] ولهذا فهو أساس المفاضلة إذ"قد يتنازع الشاعران معنى واحدا،فيرتقي أحدهما إلى ذروته ويقصر مثله شأوا الآخر عن مساواته في درجته"[26]

18الطبري:أبو جعفر محمد بن جرير ،جامع البيان عن تفسير القرآن،تح أحمد محمد شاكر،مكتبة ابن تيمية ،القاهرة ط2، ج1/199

19التوحيدي:أبو حيان،الامتاع والمؤانسة ،تحقيق أحمد أمين،أحمد الزين،دار مكتبة الحياة ج1ص121

20ينظرالتوحيدي:أبو حيان، المقابسات ،تح:السندوبي،المطبعة الرحمانية،مصرط1 (1347،1929) ص68

21الرماني،النكت في إعجاز القرآن ص107

22نفسه ص107

23الخطابي: ،بيان إعجاز القرآن ص 27

24نفسه ص29

25نفسه ص36

26نفسه ص 103

أما **الباقلاني** فكان أيضا صريحا في أن القرآن معجز بنظمه فيقول:"أنه بديع النظم ،عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه"[27] .ثم يبدأ بتفصيل هذا فيقول:"وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه وتباين مذاهبه ،خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم،ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم،وله أسلوب يختص به،ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلامالمعتاد"[28]:" ثم يذكر الباقلاني العديد من الأوجه التي تثبت إعجاز القرآن الكريم ليصل إلى النتيجة التي مفادها قوله " وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم وبديع التأليف والرصف"[29]

2-النظم عند اللغويين والبلاغيين

إن أول نص – في حدود ما اطلعنا عليه- يقرن تأليف الكلام وصياغته بنظم القلائد والسموط والأكاليل يعود إلى **ابن المقفع** حيث يقول"فإذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل أصيل وأن يقولوا قولا بديعا...فنظمه قلائد وسموطا وأكاليل....فإنه إنما اجتباه كما وصفنا"[30]

أما **سيبويه**(180هـ)فله أبواب في كتابه تشير إلى العديد من معاني النظم، وقد وضع بابا فصل فيه أقسام الكلام من حيث الحسن والقبح،بل ومن حيث الاستقامة وغيرها .ومعايير ذلك قواعد نحوية ينبغي على المتكلم الاعتماد عليها حتى لا يخرج من دائرة البيان إلى دائرة الهذيان، ومقدما في ذلك العديد من الأمثلة، وفي هذا يقول" هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة، فمنه مستقيم حسن...سوف أشرب ماء البحر أمس)[31]

وهو بهذا يقر بأن اللفظ إذا وضع في غير موضعه أو أزيح عن مكانه كان ذلك أفسد للتأليف وأجلب للتأنيب

ومن أبواب النظم التي طرحها سيبويه أيضا ما جاء في قضية التقديم والتأخير حيث يقول" والتقديم هاهنا والتأخير فيما يكون ظرفا أو اسما،في العناية والاهتمام،مثله فيما ذكرت لك في باب الفاعل والمفعول"[32]

ومن الأبواب أيضا باب النكرة والمعرفة موضحا الفروق الدقيقة بينهما،ومبينا مواضع كل منهما يقول(واعلم أن النكرة أخف عليهم من المعرفة وهي أشد تمكنا....)[33]

كما اهتم سيبويه بحروف العطف وأثرها في النظم،وكان جل اهتمامه منصبا على بناء نظام لغوي، يكون عموده الفقري مراعاة أحوال النحو، إذ يرى أن لكل استعمال معناه، وأن أي تغيير في الاستعمال يعني تغيرا في المعنى،وهو بهذا يتفق مع عبد القاهر الجرجاني إلى حد بعيد

27الباقلاني،إعجازالقرآن ص35
28نفسه ص35
[29]الباقلاني ،إعجاز القرآن ص37
ابن المقفع:عبد الله،الأدب الصغير، ص28330
سيبويه،،الكتاب ج1ص2531
نفسه ج1ص5632
نفسه ج1 ص 2233

كما تحدث **أبوعبيدة معمر بن المثنى** عن النظم في معرض حديثه عن مجاز القرآن وإن لم يذكره صراحة"فكانت محاولته رائدة للنظر في أحوال تراكيب العبارة....معاني القرآن"[34]
كما نجد بعض الملاحظات عند **بشر بن المعتمرتفيد** معنى النظم كقوله"فإذا وجدت اللفظة لم تقع موقعها، ولم تصل إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها...."[35]كما يربط كلثوم بن عمر العتابي الألفاظ بالمعاني معتبرا إياها كالجسد والروح وفي هذا يقول:"الألفاظ أجساد،والمعاني أرواح....."[36]
فنجده بهذا يؤكد على ضرورة أن توضع اللفظة موضعها.
أما **الجاحظ** فقد تكلم عن النظم صراحة حيث ألف كتابا سماه نظم القرآن والذي تكفل الزمن بطيه،غير أننا نجد بعض ما احتواه في كتاباته الأخرى ففي كتابه الحيوان يقول"كما عبت كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه"[37]، ويشهد على ذلك قول الخياط المعتزلي :"ولا يعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه وأنه حجة لمحمد(ص)على نبوته غير كتاب الجاحظ"[38]
ويقول أيضا:"فمن قرأ كتاب عمرو الجاحظ في الرد على المشبهة، وكتابه في الأخبار وإثبات النبوة، وكتابه في نظم القرآن علم أن له علم أن له في الإسلام غناء عظيما لم يكن الله عز وجل ليضيعه"[39]
كما يقول الباقلاني:وقد صنف الجاحظ في نظم القرآن كتابا لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله،ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى"[40]
ومن أهم ما نستشفه من كلامه"وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدا،وسبك سبكا واحدا، فهو يجرى على اللسان كما يجرى الدهان"[41]
كما يعد قوله:"والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي،وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك،فإنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير"[42]حديثا عن النظم بربطه بالنسيج
وأما **إبراهيم بن المدبر** فتحدث عن النظم في معرض نصحه للكتاب حين يقول:فإنما يكون الكاتب كاتبا إذا وضع كل معنى في موضعه،وعلق كل لفظة على طبقها من المعنى،فلا يجعل أول ما يبتغي له أن يكتب في آخر كتابه،ولا آخره في أوله،فإني سمعت جعفر بن محمد الكاتب يقول:لا ينبغي للكاتب أن يكون كاتبا حتى لا يستطيع أحد أن يؤخر أول كتابه ولا يقدم في آخره"[43]

عبد العزيز عبد المعطي عرفة،من بلاغة النظم العربي،عالم الكتب ،بيروت،ط2، 1984 ج1ص1234
الجاحظ،البيان والتبيين ج1ص13835
العسكري،الصناعتين ، ص12036
الجاحظ:أبوعثمان عمرو بن بحر،الحيوان ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون،مكتبة مصطفى البابي،مصر ط2، ج1، ص937
الخياط المعتزلي ،الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد ص ص 154.15538
نفسه ص 2239
الباقلاني:إعجاز القرآن ص640
41الجاحظ،البيان والتبيين ج1ص67
42 الجاحظ،،الحيوان ج3ص ص132.131
43ابن المدبر:إبراهيم،الرسالة العذراء تح:زكي مبارك،دار الكتب المصرية، القاهرة،ط1، (1350.1931) ص17

أما **المبرد** فالبلاغة عنده حسن النظم فيقول"حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى واختيار الكلم وحسن النظم،حتى تكون الكلمة مقاربة أختها،ومعاضدتها شكلها وأن يقرب بها البعيد ويحذف منها الفضول"[44]

ولعل من أهم ما أضافه المبرد هو ربطه النظم بالفروق اللغوية ويستشهد على ذلك بما ترويه الكتب من أن الكندي الفيلسوف قد ركب إلى أبي العباس المبرد وقال له:إني لأجد في كلام العرب حشوا،فقال له أبو العباس:في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون:عبد الله قائم، ثم يقولون:إن عبد الله قائم ثم يقولون:إن عبد الله لقائم،فالألفاظ متكررة والمعنى واحد،فقال أبو العباس:بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم عبد الله قائم إخبار عن قيامه،وقولهم:إن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل،وقولهم:إن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني،وقال فما أجاز المتفلسف جوابا، وإذا كان الكندي يذهب هذا عليه يركب فيه ركوب مستفهم أو معترض فما ظنك بالعامة ومن هو في عداد العامة ممن لا يخطر شبه هذا بباله"[45]

كما طرح المبرد العديد من الأمثلة التي تظهر من خلالها الفروق اللغوية ومن ذلك التقديم فيقول"ألا ترى أنك إذا قلت ظننت زيدا أخاك، فإنما يقع الشك في الأخوة،فإذا قلت:ظننت أخاك زيدا أوقعت الشك في التسمية، وإنما يصلح التقديم والتأخير إذا كان الكلام موضحا عن المعنى نحو:ضرب زيدا عمرو لأنك تعلم بالإعراب الفاعل والمفعول فإن كان المفعول الثاني مما يصح موضعه إن قدمته فتقديمه حسن، نحو قولك ظننت في الدار زيدا،وعلمت خلفك زيدا"[46]

ويغوص المبرد في الفروق اللغوية فيتجاوز تلك المبنية على الألفاظ إلى تلك القائمة على الحركات ومن ذلك ماورواه الكسائي"اجتمعت أنا وأبو يوسف القاضي عند هارون الرشيد فجعل أبو يوسف يذم النحو، فقلت: ما تقول في رجل قال لرجل:أنا قاتل غلامك،وقال له آخر:أنا قاتل غلامك،أيهما تأخذ به؟ قال:آخذهما جميعا،فقال له هارون:أخطأت فاستحيا وقال:كيف ذلك؟ قال:الذي يؤخذ بقتل الغلام هو الذي قال:أنا قاتل غلامك بالإضافة لأنه فعل ماض،وأما الذي قال:أنا قاتل غلامك بالنصب فلا يؤخذ لأنه مستقبل لم يكن بعد كما قال عزوجل وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ[47].فلولا التنوين مستقبلا ما جاز فيه غدا،فكان أبو يوسف بعد ذلك يمدح العربية والنحو"[48]

وأعتقد أن المبرد لو أفاض كثيرا في الفروق اللغوية المبنية على النحو لكان له شأن يرتقي في البلاغة ارتقاء شأنه في النحو

أما **أبو هلال العسكري** فتحدث عن رداءة التأليف وحسنه فيرى أن "حسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وشرفا، ومع سوء التأليف ورداءة الرصف والتركيب شعبة من التعمية"[49]

كما عقد بابا لحسن النظم وجودة الرصف والسبك فيقول:"وحسن الرصف أن توضع الألفاظ في مواضعها وتمكن في أماكنها، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير والحذف والزيادة إلا حذفا لا يقسم الكلام ولا يعمي المعنى وتظم كل لفظة إلى شكلها وتضاف إلى لقفها ،وسوء الرصف

44المبرد ، البلاغة،ص81

45عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ص205 ،206

46 المبرد،المقتضب،تحقيق محمد عبد الخالق عظيمة،القاهرة،(1994 ،1415) ج3 ص95،96

الكهف2347

48ياقوت الحموي،معجم الأدباء ج4 ص 1741

االعسكري،الصناعتين ص12049

تقديم ما ينبغي تأخيره منها وصرفها عن وجوهها وتفسير صياغتها ومخالفة الاستعمال في نظمها"[50]

كما عرض لمسائل بلاغية موضحا فيها جودة السبك والرصف كالإيجاز والتشبيه والإطناب.

أما **القاضي عبد الجبار** ففي معرض حديثه عن النظم عقد فصلين أحدهما ذكر فيه رأي شيخه أبي هشام الجبائي في الفصاحة وفي الثاني رأيه الخاص الذي به يقع تفاضل كلام على آخر حيث يقول :"قال شيخنا أبو هشام: إنما يكون الكلام فصيحا لجزالة لفظه وحسن معناه، ولابد من اعتبار الأمرين ،لأنه لو كان جزل اللفظ ركيك المعنى لم يعد فصيحا"[51]"وكلام أبي هشام صريح في أن النظم لا يصلح أن يكون مفسرا بفصاحة الكلام لأن النظم قد يكون واحدا ويفضل أديب صاحبه فيه وكأنه يرد بذلك على الجاحظ وأمثاله الذين يرجعون إعجاز القرآن إلى نظمه وطريقته ويقول إنه لا يوجد في كلام إلا اللفظ والمعنى ولاثالث لهما وإذا كان لابد أن تكون الفصاحة راجعة إليهما بحيث يكون اللفظ جزلا والمعنى حسنا"[52] ويحاول القاضي عبد الجبار إدراك النقص في أستاذه فيضيف النظم الى الفصاحة فيقول :"إن العادة لم تجر بأن يختص واحد بنظم دون غيره ،فصارت الطرق التي عليها يقع نظم الكلام الفصيح معتادة كما أن قدر الفصاحة معتادة فلا بد من مزية فيهما ولذلك لا يصح عندنا أن يكون اختصاص القرآن بطريقة في النظم دون الفصاحة التي هي جزالة اللفظ وحسن المعنى ومتى قال قائل إني وإن اعتبرت طريقة النظم فلابد من اعتبار المزية في الفصاحة فقد عاد إلى ما أردناه"[53]، والقاضي برأيه هذا يكون قد رد على الباقلاني وغيره من الأشعرية ويتفق مع أستاذه الرماني ومن نحا نحوهم من المعتزلة في طريق بسط بلاغة الألفاظ والمعاني وتبيين وجوهها مضيفا فكرة ترتيب الكلام التي اعتبرها أساسية في بلاغتها وفصاحتها وفي هذا يقول: "اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ولابد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه وقد تكون بالموضع وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع....قال فقد قلتم إن في جملة ما يدخل في الفصاحة حسن المعنى فهل اعتبرتموه؟ قيل له: إن المعاني وإن كان لابد منها فلا تظهر فيها المزية ولذلك تجد المعبرين عن المعنى الواحد يكون أحدهما أفصح من الآخر والمعنى متفق على أن نعلم أن المعاني لا يقع فيها تزايد فإذن يجب أن يكون الذي يعتبر التزايد عند الألفاظ التي يعبر بها عنها فإذا صحت هذه الجملة فالذي تظهر به المزية ليس إلا الإبدال الذي به تختص الكلمات أو التقدم أو التأخر الذي يختص الموقع او الحركات التي تختص الإعراب فبذلك تقع المباينة...وهذا يبين أن المعتبر في المزية ليس بنية اللفظة وأن المعتبر فيه ماذكرنا من الوجوه فأما حسن النغم وعذوبة القول فمما يزيد الكلام حسنا على السمع لا أنه يوجد فضلا في الفصاحة."[54]

ويعد القاضي عبد الجبار ملهم عبد القاهر الجرجاني ودافعه الرئيس إلى وضع كتابه دلائل الإعجاز حيث يرى محققه أن قول القاضي عبد الجبار **أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلم**

ن م ،ن ص50

القاضي عبد الجبار،المغني ج 16ص19751

شوقي ضيف،البلاغة تطور وتاريخ،دار المعارف،مصر ط8، ص 115-11652

القاضي عبد الجبار،المغني ج،16 ص197-19853

القاضي عبد الجبار،المغني ج16ص20054

وإنما تظهر بالضم على الطريقة المخصوصة ثم يقول بعد ذلك **إن المعاني لا يقع فيها تزايد وإذن فيجب أن يكون التزايد عنده في الألفاظ** كما ذكرنا فهذان القولان هما اللذان يدور كتاب دلائل الاعجاز على ردهما وإبطال معناهما.

واذا كان عبد القاهر قد أقر بداية إطباق العلماء على تعظيم شأن النظم وتفخيم قدره والتنويه بذكره وإجماعهم أن لا فضل من عدمه ولا قدر لكلام إذا هو لم يستقم له ولو بلغ في غرابة معناه ما بلغ؛ فإنه يطالب هؤلاء الذين تكلموا عن النظم أن يبينوا الجهة التي بها اختص حيث يقول:" ولا يكفي أن تقولوا إنه خصوصية في كيفية النظم وطريقة مخصوصة في نسق الكلام بعضها على بعض؛ حتى تصفوا تلك الخصوصية وتبينوها وتذكروا لها أمثلة...ولو كان قول القائل لك في تفسير الفصاحة أنها في خصوصية في نظم الكلم وضم بعضها إلى بعض على طريق مخصوصة أو على وجوه تظهر فيها الفائدة أو ما أشبه ذلك من قول مجمل كافيا في معرفتها، ومغني في العلم بها، يكفي في معرفة الصناعات كلها فكان يكفي في معرفة نسيج الديباج الكثير التصاوير أن تعلم أنه ترتيب لغزل على وجه مخصوص وضم لطاقات الإبريسم بعضها إلى بعض على طرق شتى وذلك ما لا يقوله عاقل."[55]

وأمام هذا الاستقصاء المجمل للذين تحدثوا عن النظم جاز لنا أن نتساءل ببراءة مطلقة عن الإضافة التي قدمها عبد القاهر للدرس البلاغي بتبنيه النظم كفكرة ليحولها إلى نظرية وهو ما سيجيب عنه المبحث الموالي

[55] عبد القاهر الجرجاني،دلائل الإعجاز ص425